

الحجّ الإبراهيمي و الحجّ الجاهلي

الدكتور صادق آئينه‌وند

جامعة تربيت مُدّرس

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَنِيفُ مِنْ مِثْلِي
وَبِالْزُّكْنِ وَالَّتَغْرِيفِ وَالْجُمَرَاتِ
وَدِيَارِ عَلِيٍّ وَالْحُسَيْنِ وَجَعْفَرٍ
وَخَمْرَةَ وَالسَّجَّادِ ذِي الثَّنَائِفَاتِ
وَسِبْطِي رَسُولِ اللَّهِ وَابْنِي وَصِيَّهُ
وَ وَارِثِ عِلْمِ اللَّهِ وَالْمَحْسَنَاتِ

«دعبل بن علي الخزاعي»

المقدمة:

إنّ أصول الحجّ الإبراهيمي: هي تلك التي شرّعها الدين المبين، و من الصعب الوصول عبر النصوص والوثائق الباقية - باستثناء القرآن الكريم - إلى شيء يمكنه رسم حقيقة تلك الأصول. ولكن في ضوء تعدد التفاسير، التي تقدمها المذاهب الاسلامية حول أداء الحجّ وفق نهج إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وكما يدعو إليه الدين المبين، وبالتحديد ما يتعلق بالنواحي السياسية والاجتماعية والتوتّي والتبرّي، نجد من المناسب البحث فيما وصل إلينا عن شعائر الحجّ الإبراهيمي و مناسكه، خصوصاً وان هذه التفاسير لم تكن بمنأى عن التأثر بتقادم الأزمنة و هيمنة الأمويين والعباسيين، والأجواء السياسية والاجتماعية التي ترتبت على سلطة كلّ منها، علاوة على انحياز بعض العلماء والفقهاء الذين عدوا أنفسهم مرتبطين بجهاز الحكم إبان العهدين الاموي والعباسي.

إن ما يمكنه تفصيل الحجّ الإبراهيمي، و نفع الروح والمحتوى فيه، هو المضامين والمناسك، والتي يجب دائماً التمسك بها واللجوء إليها، وبالخصوص الديني بالحجّ تحقيق صدور رؤية إبراهيم الخليل (عليه السلام) و محمد الحبيب (صلى الله عليه وآله وسلم). وإلا فإنّ التمسك الظاهري في اقامة المراسم والمواسم يذكر بالحجّ السهل الذي اذاه أبوسفیان أيضاً. لأنّ الحجّ بالمعنى العام لا يختصّ به الاسلام، إنّ ما أمر به الاسلام و

الحجّ الإبراهيمي والحجّ الجاهلي

أصرّ عليه، هو الحجّ الإبراهيمي من بين الحجّ الجاهلي والحجّ الحنفي والحجّ الصابئي.

وقد أشار بطلميوس (Ptolemy) الفلكي والجغرافي

الذي عاش في القرن الثاني للميلاد إلى هذه المفردة^(٥).

على هذا الأساس يمكن القول: أنّ مفردة «مكة» تمثل صفةً و نعتاً لبيت الله ولا تعني اسماً خاصاً. لكنّها إثر الاستعمال والشهرة حلّت مكان الاسم، مثل القدس إذ حلّت الصفة محلّ اسم العلم. وكلمة «بكة» تعادل «مكة»، فحسب رأي الدكتور جواد علي أنّ الكلمتين تمتلان تسميةً واحدةً، في لهجات القبائل تأتي الباء بدل الميم بالقلب والابدال، وبخاصّة في لهجات جنوب الجزيرة العربية^(٦).

يرى بعض المحققين أنّ مفردة «بكة» تعني الوادي.

(إنّ أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين).

جاء في القاموس: «بكة» تقال لمكة، أو لما بين جبلية؛ نرى أنّ مفردة «بك» سامية قديمة، وكلمة «بُعاه» عبرية وتعني الوادي، وقد أُطلقت على الوادي الواقع بين لبنان الساحلي و لبنان الشرقي والذي أسماه الروم سورية المنخفضة.

«وإنّ مدينة بعلبك مشهورة، وهي من الكلمات المركبة تركيباً مزجياً من «بعل» [إله قديم] و «بك» [الوادي] ومعنى بعلبك إله الوادي»^(٧)؛ وهو نفس الاسم الذي أطلق على هذه المدينة تيمناً بأهله الساميين المعروفة ويطلق اليوم على هذا الوادي اسم البقاع، والذي يميّز نهر الليطاني عبره.

أطلق القرآن الكريم على مكة اسم «أمّ القري»^(٨) و «قربة»^(٩)، قارنها بالطائف: (وَ قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)^(١٠).

وقد ذكر أغلب المفسرين أنّ المراد من القريتين هما مكة والطائف^(١١).

وقال المسعودي في مروج الذهب: «وقد كان إبراهيم قدم إلى مكة وإسماعيل ثلاثون سنة حين أمره ببناء البيت»^(١٢). إنّ ما يسترعي الاهتمام من الناحية التاريخية، هو ما نقله

حجّ إبراهيم (عليه السلام):

«و الشائع في الأخبار والروايات العربية القديمة أنّ الحجّ، على زمن إبراهيم عليه السلام، كان يعني قَصْدَ كعبة مكة والطواف بالبيت والتلبية وقضاء بقية المناسك، ثم جاءت الوثنية بأصنامها وبيوتها وعباداتها فصار الحجّ يشملها أيضاً»^(١٣)

(وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)^(١٤)

«أنّ إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) هما اللذان بنيا الكعبة بيت عبادة لله، وأنّ حرمة الكعبة ومنطقة مكة و تقاليد الحجّ وطقوسه المتنوعة في هذه المنطقة من سنن إبراهيم»^(١٥)

وقد أخذ الأقسام الآخرون - الذين عاشوا بألف سنة قبل ميلاد المسيح (عليه السلام) - بهذه السنّة؛ فكانوا يراعون حرمة مكة والحرم.

يختم خبراء الكتاب المقدّس (العهد القديم والجديد) والمتخصّصون في الأديان، أنّ إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) عاشا نحو ألفي عام قبل الميلاد، وبذلك يكون قد مضى نحو ٤٠ قرناً على الظهور الحديث للكعبة بالبناء الإبراهيمي.

وعندما تحدّث ديو دورس Didorus of Sicily الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، عن الأنباط، أشار إلى الكعبة بقوله: «إنّه مكان مقدّس له حرمة وشهرة بين جميع العرب، هو مكة»^(١٦).

يعتقد بعض الباحثين، أنّ مفردة «مكورابا» (Macoraba) والتي تلفظ في اليونانية «مقوروبابا» والتي أراد بها اليونانيون اسم مدينة، وتعني مكان التقرب لله، تعني مكة. معلوم أنّ كلمة «مكروب» هي مفردة دينية قديمة استعملت قبل ألف عام من تأسيس حكومة السبأ.

الحجّ الإبراهيمي والحجّ الجاهلي

الكلبي رأى في كتاب «الأصنام»: «أنّ إسماعيل بن إبراهيم (صلى الله عليهما) لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثير حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العالقيق، ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً، فتفسّحوا في البلاد لالتماس المعاش.

وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنّه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلاّ احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة»^(١٥).

وقد أدّى هذا العمل على المدى الطويل إلى نشوء صناعة الأصنام وعبادتها وبالتالي ساد الشرك الجزيرة.

وكانوا في ديار الغربية يدورون حول هذه الأصنام، ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة. إلاّ أنّ هشام يضيف قائلاً: «وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتصرون، على إرث إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)»^(١٦). وفي الأسباب الكامنة وراء الميل نحو الشرك وتغلبه على دين إبراهيم، رأى هشام أنّها تتمثل في توغّلهم واهتمامهم الشديد بالأصنام، موضحاً أنّه رغم كلّ ذلك كانت ثمة بقايا مناسك من عهد إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) قام أهل الجاهلية بأدائها بعد أن مزجوها بتقاليد الشرك، فبدأ الحجّ الجاهلي بمعناه الدقيق من ذلك الحين:

«و فيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) يتنسكون بها: من تعظيم البيت، والطواف به، والحجّ، والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البدن، والإهلال بالحجّ والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه»^(١٧).

مناسك الحجّ في الجاهلية:

كان الحجّ في الجاهلية يبدأ من اليوم التاسع من شهر ذي الحجة، عندما تشارف الشمس على الغروب، وقبله يجتمع الناس لأغراض التجارة في سوق عكاظ خلال شهر ذي القعدة لمدة عشرين يوماً، يتوجهون بعد انقضاءها إلى سوق الجحّة حيث يمكنون فيه حتى نهاية الشهر وهم يمارسون

مينغانا (mingana) عن راهب سرياني يدعى نرساي (Narsai) بشأن نزاع أولاد هاجر في (بيت عرباية) في الحدود الشامية، وهذا الخبر يمثل أول نقل عن شخص من أهل الكتاب (توفي في سنة ٤٨٥ للميلاد) أفاد فيه بوجود قريش في شمال الجزيرة، وهو يتطابق مع ما أورده التّسابون والأخباريون العرب، في إرجاع نسب قريش إلى إسماعيل (عليه السلام)^(١٢).

جاء في الآيات (١٤٥-١٥٠) من سورة البقرة المباركة والتي استنكرت دسائس اليهود بين المسلمين بشأن تغيير القبلة من القدس إلى الكعبة، قوله تعالى: (و ان الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون)^(١٤).

وفيه إشارة قبل كلّ شيء إلى علم اليهود بأفضلية الكعبة وأقدميتها، كقبلة. ممّا يعني أنّهم كانوا يقرون قبل ظهور الاسلام بفضائلها وسوابقها واتصالها بإبراهيم (عليه السلام) وقد حدّثوا العرب بذلك.

لم يسجل التاريخ ما يقود إلى اليقين في الحجّ الإبراهيمي الصحيح غير ما علّمه القرآن الكريم.

والحجّ الحنبلي الذي يدّعي محاكاة حجّ إبراهيم (عليه السلام)، فعلاوة على أنّه جعل ليقابل حجّ المشركين وعمل به في أجواء الشرك الجاهلي، فهو غير واضح، كما أنّ شبهة الشرك تكتنفه في بعض الحالات.

في عقيدتنا أنّ الحجّ الإبراهيمي هو حجّ الاسلام، إلاّ أنّ قيمة هذا الحجّ ومكانته تُدرّك عندما نتعرّف على الحجّ الجاهلي وحجّ المشركين، ونجري مقارنة بينهما، كي لا تتحرك - والعياذ بالله - تلك الرواسب الباقية في أذهان المسلمين، وتطرح مقابل الحجّ الإبراهيمي الذي أمر به القائد الكبير للثورة ومؤسس الجمهورية الاسلامية في إيران سماحة الامام الخميني - قدّسنا الله بسرّه العزيز - وأقيم للمرة الأولى في هذا العصر.

لم يتفق المؤرّخون السابقون على رأي واحد بشأن دخول الشرك و انتشاره في الجزيرة العربية، فبعضهم مثل هشام

الحجّ الإبراهيمي والحجّ الجاهلي

بالبرق والرعد، وان كنا لاندرى شيئاً عن إله عرفات، و
لربما كان نفسه إله المزدلفة «قُرح» [إله البرق والعواصف
والرعد والغيث] الذي عبده الأدميون من قبل ولم يبق من
ظواهر عبادته بين الجاهلين إلا إشعال نيرانه بمزدلفة»^(٢٣).

وكان لكل قبيلة موقف خاص بها في عرفة، ولم يبق الآن
إلا أسماء بعضها، لأن وحدة صفوف الحجاج في الإسلام دون
تمايز، أدت إلى اندثار أسماء تلك المواقع.

من المواقع الخاصة التي ما زالت باقية موقف نَفْعَة
الخاصّ بقبيلة ربيعة والذي ورد في شعر لعمر وبن قبيّة:

وَ مَنْزِلَةٌ بِالْحَجِّ أُخْرَى عَرَفَتْهَا
لَهَا نَفْعَةٌ لَا يُسْتَطَاعُ بُرُوحُهَا^(٢٤)

كانت قريش وكذلك أهل مكة يرون أنفسهم أفضل من
غيرهم من العرب، فيختارون موقفهم بالقرب من مكان
الأضاحي في مزدلفة في موضع اسمه نَمْرَة.

وكانوا يعظمون جبل «إلال» في عرفة و يقسمون به، و
قد ذكر في شعر النابغة في عدة أماكن، كذلك أورده طفيل
الغنوي في شعره بقوله:

يَرْزُنَ إِلَّا لَا يُنْصَبْنَ غَيْرِهِ
بِكُلِّ مَلَبٍّ أَشْعَثِ الرَّأْسِ مُحْرِمٍ^(٢٥)

و كانوا يطلقون على الانتقال السريع من عرفة إلى
مزدلفة تسمية الإفاضة أو الإجازة، وكان هناك أشخاص
يتقدمونهم ليهدوهم السبيل.

وروي ابن هشام في سيرته «كان الغوث بن مَرِّ بن أد بن
طابخة بن إلياس بن مضر يلي الإجازة للناس بالحجّ من
عرفة، و ولده من بعده؛ وكان يقال له ولولده صُوفَة»^(٢٦).

و في وجه التسمية قالوا: إن أمّه عندما ربطته بالكعبة
وضعت عليه قطعة من الصوف.

و ممّا رُوي عن ابن عباس في الحجّ الإبراهيمي، أن النبي
(صلى الله عليه وآله وسلم) منع من الحركة السريعة وأمر
بالسكينة إذ قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «أيها الناس،

معاملاتهم التجارية، وإذا هلّ هلال ذي الحجة انطلقوا إلى
ذي المجاز ليواصلوا فيه البيع والشراء على مدى ثمانية أيام، و
في اليوم التاسع ينادي المنادي فيهم: «تروّوا بالماءٍ لأنّه لا ماءٌ
بعرفة ولا بمزدلفة».

و بهذه المناسبة سُمي هذا اليوم بيوم التروية، وهو اليوم
الذي ينتهي فيه موسم أسواق الحجّ الجاهلي^(٢٨).

في اليوم التاسع من ذي الحجة يصل الحجاج إلى عرفة، و
يرتدون اللباس الخاصّ بالحجّ كما أورد الجاحظ: «كانت
سبأ أهل الحرم إذا خرجوا إلى الحِلِّ في غير الأشهر الحرم، أن
يتقلّدوا القلائد و يُعلّقوا عليهم العلائق، فإذا أُوذِمَ أحدهم
الحجّ تزيّاً بزِيّ الحاج»^(٢٩).

و يقومون بالتلبيد قبل ذهابهم إلى المواقع. والتلبيد
عبارة عن وضع الحاجّ مزيجاً من الخطمي والآس والسدر و
مادة صمغية على شعر رأسه وذلك للحيلولة دون تسريجه و
دون قتل القمل، و قد وصف امية بن أبي الصلت الحجاج
الذين تلبّدوا بقوله:

شاحينَ أباطهم لم يَنزِعُوا نَفْتًا
و لم يَسْأَلُوا لَهُم قُفْلًا و صِئبانًا^(٣٠)

المواقف:

الموقف الأوّل، هو عرفة كما ذكرنا إذ يصلونه في اليوم
التاسع من ذي الحجة.

وقد ذكروا وجوهاً مختلفة بشأن اسم «عرفة» منها.
أنّ جبرئيل كان يطوّف إبراهيم في المشاعر، و يعلمه
المواضع و هو يقول: عَرَفْتُ، و منها أنّ آدم و حواء بعد
الهبوط عرف أحدهما الآخر في هذا المكان، و منها أنّ الناس
يتعارفون في هذا الموضع^(٣١).

قال ياقوت: «وقيل: بل سُمي بالصبر على ما يكابدون في
الوصول إليها، لأنّ العرف الصبر؛ و يقال: إنّ الناس يعترفون
بذنوبهم في ذلك الموقف»^(٣٢).

«و يقارن هوتسما (Houtesma) الوقوف بعرفات
بوقوف اليهود على جبل سيناء، حيث كان يتجلّى معبودهم

الحج الإبراهيمي والحج الجاهلي

تفاوت مع الأحجار الصغيرة التي تستعمل في الحج الإبراهيمي لرمي الجمرات.

يبدو أن أهل الجاهلية يخرجون من الإحرام بعد النحر والرمي في منى، وهذا المفهوم يُستفاد من شعر نقله الجاحظ في كتاب الحيوان لعبدالله بن العجلان.

بعد النحر يتوجه المشركون إلى الرمي، إلا أن هذا العمل منوط بإجازة الصوفة الذين يتكفلون أمر الأفاضة من عرفة ومزدلفة، وأولئك لا يرمون حتى تقترب الشمس من الغروب^(٣٠).

ثمّة بيت في كتاب المفضّليات عن الشنفرى الشاعر الجاهلي الصعلوك، وردت فيه كلمة الجمار:

قَتَلْنَا قَتِيلًا مُهْدِيًا بِمُلبَدٍ
جمار منى وَسَطَ الحَجِيجِ الْمُصَوَّتِ^(٣١)

بعد الفراغ من الرمي، يحبسون الحجاج في العقبه، ولا يسمح لأحد بالحركة حتى يعبر الصوفة، الذين يعبرهم يتحرك الحجاج بعدهم.

وقد بين مرة بن خليف الفهمي، شوق الحجاج للحركة و منع الصوفة لهم في هذا البيت من الشعر:

إِذَا مَا أَجَازَت صُوفَةُ النَّقَبِ مِنْ مَنَى
وَلَا حَ قَسْتَارٌ فَوْقَهُ سَفَعُ الدَّمِ^(٣٢)

تبدأ مراسم الحج، قبل الغروب من اليوم التاسع من ذي الحجة، وبعد عرفة ومزدلفة وإشعال النار فوق جبل قزح، ونحر الهدى ورمي الجمرات، تنتهي عند الغروب، أي إنهم يكونون قد فرغوا من مراسم الحج في ليل العاشر من ذي الحجة، يبقى دخول مكة والطواف ثم يعود كل فرد إلى وطنه بعد أدائها.

وكانت مراسم الحلق والتقصير تتم بعد التلبيد، وحسبما أورد صاحب تاج العروس، فقد كان الينيون يضعون على شعرهم الملبد الطحين أو مسحوق الحمص والسكر، ثمّ يخلقون، فيتساقط الطحين أو مسحوق الحمص فينتفع به

عليكم بالسكينة، فإن البرّ ليس بالإيضاع»^(٣٧).

وكما نقل الأزرقى، فإن أول من أشعل النار فوق جبل قزح كان قصي بن كلاب، حيث استمر هذا الأمر حتى ظهور الاسلام، ولعلّ الهدف من اضرام النيران هناك هو إرشاد الحجاج، إذ كان من الممكن أن يحلّ الظلام قبل أن يصلوا إلى المزدلفة^(٣٨).

وكان الجميع يجتمعون في المزدلفة الواقعة بين عرفات و منى، حتى قریش والمكّيون كانوا ينضمّون إلى المجتمعين، وكانوا يمشون الليل بالدعاء والتلبية بانتظار طلوع الشمس، وكان البعض لعجلته يخاطب جبل ثبير الذي تشرق الشمس من خلفه بقوله: «أشرقُ ثبير، كما تُغير».

وتكون الأفاضة في الحج الإبراهيمي من عرفة بعد الغروب، ومن مزدلفة قبل طلوع الشمس، خلافاً لحجّ المشركين.

وقد أشار أبو ذؤيب الهذلي إلى مبيت المشركين في مزدلفة، وانتقالهم منها إلى منى في شعر له وصف به حاجاً مشركاً أدى أعماله متعجلاً ليشترى العسل، إذ قال:

فَسَبَاتَ بِجَمْعٍ ثُمَّ تَمَّ إِلَى مَنَى
فَأَصْبَحَ رَادًّا يَبْتَغِي المَزْجَ بِالسُّحْلِ^(٣٩)

إنّ التاريخ لا يحدّثنا بشيء عن سبب الاسراع في العبور من مزدلفة إلى محلّ الهدى بمنى، لكنّ بالإمكان الحدس بأنّه كان للحصول على مكان مناسب، أو للتعجيل في الهدى.

و في المزدلفة أيضاً كان الصوفة يقومون بالإضافة، التي كانت تتكفلها أسر أخرى من القبائل أيضاً.

موقف منى:

بعد وصولهم منى ينحر المشركون الهدى، ويستمر ذلك من الصباح حتى الغروب. وكانوا يرمون الحجارة في مكانين خاصين هما المحصّب والجمار كي لا يمكن لأهل مكة أن يزرعوا شيئاً فيها، ومعلوم أنّ هذه الأحجار يجب أن تكون كبيرة لتجعل الأرض غير صالحة للزراعة تماماً، فهي

الحج الإبراهيمي والحج الجاهلي

الفقراء^(٣٣).

يقفون هم عند أطراف الحرم ثم يذهبون ليلاً إلى المزدلفة.
وقد ظلّ هذا الأمر حتى ظهور الاسلام، إذ ألغته الآية (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس...) (٣٨).

ومن جملة الأعمال التي كان على قريش القيام بها رعاية للحُمس هو أنهم: «لم يطبخوا إقطاً، ولم يدخروا لبناً، ولم يحولوا بين مرضعة ورضاعها حتى يعافه، ولم يجرّكوا شعراً ولا ظفراً، ولا يبتنون في حجّهم شعراً ولا براً ولا صوفاً ولا قطناً، ولا يأكلون لحماً، ولا يمسّون دهنًا، ولا يلبسون الا جديدًا، ولا يطوفون بالبيت إلا في حدائهم و ثيابهم، ولا يمسّون المسجد بأقدامهم تعظيماً لبقعته، ولا يدخلون البيوت من أبوابها» (٣٩).

وقد أشار القرآن إلى هذا الأمر، ونهى عنه في الآية (و ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى، و اتوا البيوت من أبوابها...) (٤٠).

ومن تقاليد الحُمس الأخرى قولهم، إنّه لا يليق بغير أهل الحرم أن يتناولوا طعام غير الحرم في الحرم، بل عليهم إذا جاءوا للحج أو العمرة أن يأكلوا من طعام أهل الحرم إمّا من خلال الضيافة أو الشراء (٤١).

كذلك كان من الواجب على كلّ من أراد الطواف للمرة الأولى، أن يطوف بلباس أهل الحرم، أي الحُمس، وإن لم يجد ذلك طاف عريان (٤٢).

كذلك إذا تزوّج رجل من نسائهم فإنّ أولاده يكونون من الحُمس، ولهذا الأمر بواعث سياسية واقتصادية أيضاً، وقد تفاخر بعض شعراء الجاهلية بذلك.

٢- الحلة: وهم قبائل سكنوا خارج الحرم، أي في الحلّ، و عرفوا بالحلة، وكان الفرق بين أهل الحلّ وأهل الحرم في أن أهل الحلّ كانوا في أيام الحج يذيون السمن، و يأكلون الإقط واللحم، و يضعون الزيت على أجسامهم، و يلبسون من الصوف والشعر، و يقيمون في الخيام، و يؤدّون المناسك بشياهم، و بعد الفراغ و عندما يدخلون الكعبة يتصدّقون بنعلهم و ثيابهم، و يستأجرون للطواف الثياب من أهل الحُمس (٤٣).

ولا بُدّ من معرفة أنّ الحلق و التقصير لا يكونان في منى و حسب، بل و كما قال هشام الكلبي: «كانت الأوس و الخزرج و من يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب و غيرها يحجّون، فيقفون مع الناس الموافق كلّها، و لا يملقون رؤوسهم. فإذا نفروا أتوا إمّنة. فحلّقوا رؤوسهم عنده و أقاموا و لا يرون لحجّهم تماماً إلا بذلك» (٣٤).

الفوارق و الامتيازات:

إذا تمعّنا في مراسم الحجّ الجاهلي من خلال التاريخ و الأدب المدوّنين، وجدنا ثمة فوارق ناشئة عن شعور بعض القبائل بالفضل على سواها. و تتمثّل هذه الفوارق قبل كلّ شيء في طريقة أداء حجّ المشركين، الذي فقد طابعه الديني و وحدته، بسبب تأثير النزعة الاستعلائية للقبائل القوية.

و كان الحجّاج في الجاهلية على ثلاثة أقسام: ١- الحُمس. ٢- الحيلة. ٣- الطلّس.

١- الحُمس: كان القرشيون يرون لأنفسهم الأفضلية على سائر العرب، و لمجاورتهم مكّة كانوا يقولون: «نحن أهل الحرم، فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرم، و لا نعظّم غيرها كما نعظّمها، نحن الحُمس» (٣٥).

يتبيّن من هذا المقطع أن امتياز الحُمس كان محتصاً بسكّان الحرم من قريش، فقد جاء في كتاب الخبر أنّ الحُمس يطلق على «قريش كلّها، و خزاعة لزوها مكّة، و مجاورتها قريشاً» (٣٦).

وقد ذُكر وجهان في المعنى اللغوي لكلمة الحُمس، إذ ورد أنّ: «الحُمس جمع أحْمَس و حَمِس، من حَمَسَ: أي، اشتد و صلّب في الدين و القتال، و قيل: إنهم لقبوا بذلك لالتجائهم بالحُمسَاء، و هي الكعبة، لأنّ حَجَرَهَا أبيض إلى السواد» (٣٧). و ما أوجده الحُمس في الحجّ هو ترك الوقوف في عرفة و الإضافة منها إلى المزدلفة، فهم في الوقت الذي يقرون فيه بهذه المناسك، يقولون: نحن أهل الحرم لا ينبغي لنا الخروج من الحرم و تعظيم غيره؛ و عندما يقف الحجّاج في عرفة،

الحجّ الإبراهيمي والحجّ الجاهلي

يسقي الحجيج في الصفا والمروة لبناً وعسلًا^(٤٨).

الطواف والتلبية:

إن ما يسترعي الاهتمام وتُتضح فيه هوية الحجّ الجاهلي الحقيقية، هو محتوى التلبيات وارتباطها بالأصنام، إذ لم يكن من حجهم بكل مظاهره غير حركات عابثة وأفعال لا معنى لها.

فأعمال الحج في واقعها رموز إلهية بروح توحيدية جاءت من الخليل محطم الأصنام، وأدت الغفلة عنها، والغربة عن أسرارها ورموزها، وعدم فراغ القلب من سوى المطلوب، والدوران دون حضور القلب، إلى الخسران.

والأهم من كل ذلك هو الربط بين تلك الرموز والشعائر، في تلك المواقف والمناسك، وبين العالم الخارجي الذي سيواجهه الحاج في الحجّ الإبراهيمي، العالم الذي يجب أن يحياه ديناً وقلباً ودنياً وفق نهج إبراهيم (عليه السلام) ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أي وفق الإسلام، وبالجمع بين هذه الثلاثة يكون قد سلك النهج الذي أطلقه الخليل (عليه السلام) والحبيب (صلى الله عليه وآله وسلم).

كان حجّ المشركين حجاً جاهلياً، إذ كانوا يتوجهون بعد وصولهم مكة إلى الأصنام يظهرون لها خضوعهم، وفي عرفة والمزدلفة و منى كانوا دائماً يذكرها أو يجوارها، فني منى وضعت سبعة أصنام بالقرب من الجمرات الثلاث ليعظمها الحجيج بعدها، وكان مكان الأضحاحي (الهددي) في منى مليئاً بالانصاب إذ كان المشركون يمسحونها بدماء الأضحاحي.

جاء في سيرة ابن هشام نقلاً عن معاوية بن زهير:

فأقسم بالذي قد كان ربّي

وأنصاب لدى الجمرات مُغر^(٤٩)

وبعد انتهاء الحج كانوا ينشرون لباس الاحرام حول الأصنام.

٣ - الطلّس: قيل إنهم اليمنيون من أهل حضرموت و عكّ وعجيب وإياد بن نزار، والوجه في تسميتهم هو مجيئهم من مناطق بعيدة وبالتالي طوافهم بالبيت وقد غطاهم الغبار^(٤٤). وكان هؤلاء يماثلون الحلة في الإحرام، والحُمس في ارتداء الثياب ودخول البيت^(٤٥).

العُمرّة:

يأتي أهل الجاهلية من الحُمس والحلة والطلّس إلى الكعبة لغير الحجّ أيضاً وذلك لأداء العمرة، وكانوا يمتنعون عن التلبيد ويحلقون سلفاً خلافاً لما كانوا يفعلونه في الحجّ، و يعدون أداء العمرة في أيام الحجّ ذنباً كبيراً، وحسب الاعتقاد الجاهلي فان أداء العمرة في أشهر الحجّ، ذي القعدة وذي الحجة والمحرّم، من الذنوب التي لا تغتفر، فهم يقولون:

«إذا برأ الدبر وعفا الوبر، ودخل صفر، حُلّت العمرة لمن اعتمر»^(٤٦).

ولا فرق بين العمرة والحج من حيث الاحرام والطواف، بيد أنها لا تتضمن الوقوف في عرفة والمزدلفة و منى، ورمي الجمرات.

السقاية والرفادة:

لوقوع مكة في وادٍ غير ذي زرع، ولشحّة المياه فيها، فإن سعي القرشيين الرئيس في أيام الحج كان منصّباً على توفير الماء للحجيج، وقد سمي هذا العمل بالسقاية. وقيل إن أول من سقى الحجيج هو قصي.

والمشكلة الثانية في هذه الايام بعد إيصال الماء هي الإطعام، وقد سمي هذا العمل بالرفادة. وقيل إن أول من قام به هو قصي أيضاً^(٤٧).

وقد بقي هذا العمل لأولاد قصي، إذ تكفل به من بعده هاشم بن عبد مناف، ثم ابنه عبد المطلب، ثم أبوطالب الذي عاصر ظهور الإسلام.

وقد شارك في هذا العمل أشخاص آخرون من غير هذه الاسرة، مثل عدي بن نوفل الذي عاصر عبد المطلب، وكان

الحج الإبراهيمي والحج الجاهلي

والتفاخر القبلي، والأغراض التجارية والأهداف السياسية والقومية، لذلك سعت كل قبيلة أثناء الطواف لاستعراض مظاهر هذا المزيج غير المتجانس من خلال رفع الأصوات. وقد عبر القرآن الكريم عن حركة المشركين هذه لدى الطواف بقوله تعالى:

(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً)^(٥١).

وبعد منى كان المشركون يتوجهون إلى مكة إذ يقفون فيها ثلاثة أيام، تسمى بأيام التشريق، وقد ذكروا أقوالاً في وجه تسميتها: منها طبخ لحم الأضاحي بأشعة الشمس، ومنها نحر الأضاحي عند طلوع الشمس، وكانوا يهتمون بهذه الأيام لكنها لم تكن من أركان الحج الأساسية.

كان على غير أهل الحُمس، أثناء الطواف إما أن يرتدوا ثياباً استعاروها أو استأجروها، وإما أن يطوفوا عراة، وهذا يتعلق بمن يأتي إلى الحج للمرة الأولى.

وكان أهل الحل يتركون ثيابهم بعد الطواف في محل قرب مكة، ولا يحق لهم ارتداؤها مرة أخرى، وتسمى هذه الثياب لقي^(٥٢)، إذ لا يمكن الاستفادة منها بسبب تعرضها لأشعة الشمس وتغيرات الجو وراثتها.

كان الطواف حول البيت، دون ثياب أمراً دارجاً وكان يطاف حتى النساء.

فقد نقل أن امرأة جميلة لم تجد ثياباً فاضطرت إلى الطواف عارية، مما دفع جمعاً كثيراً إلى الاحتشاد لمشاهدتها.

ونقل أيضاً أن بعض المشركين كانوا ينتهزون هذه الأيام، فيتحلقون حول الكعبة لرؤية هذه المشاهد، وكان خُفاف بن نُدبة يسعى لرؤية عشيقته، وكما قال فإنه استطاع أن يراها عارية في هذه الأيام، إذ جاء عنه:

وأبدي شهور الحج منها محاسناً
ووجها متى يحلل له الطيب يُشرق^(٥٦).

ويجب البحث عن جذور هذا الطواف في مصالح الحُمس الذين سعوا عبر إيجاز الثياب ولمرة واحدة، أن يضمّنوا لأنفسهم مصدراً مالياً، وكان أهل الحل في بعض الأحيان لا

إنّ ما يتحصّل من الأشعار والآثار الجاهلية الباقية، هو أن أداء المناسك كان يترافق مع التلبية بصوت عال، وتجدر الإشارة إلى أنّه لم يكن ثمة وجود للتلبية المختصة بحج إبراهيم (عليه السلام) والتي مفادها: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك... بل إنهم غيروا التلبية لتتوافق مع عقيدة الشرك لديهم، إذ كانت كالآتي:

لبيك اللهم لبيك! لبيك لا شريك لك! إلا شريك هو لك!
تملكه وما ملك^(٥٥)!

ويظهر في هذه التلبية الاعتقاد بالشريك، وقد كشف القرآن الكريم عن عقيدتهم المشركة في قوله تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)^(٥١).

وقد اعتبر ابن الكلبي أنّ هذه التلبية مختصة بزار، بينما رأى ابن اسحاق وابن حبيب أنّها مختصة بقريش، وقال الأزرقى إنّها متعلقة بكلّ المشركين، ومما لا شكّ فيه أنّ التلبية التي يؤدونها أهل الحرم يمكن أدائها من قبل أهل الحل. ونقل اليعقوبي والارزقي، أنّ كل قبيلة كانت أثناء الحج تهلل حول صنمها حتى تصل مكة، «ذلك أنّ عبّاد كلّ صنم كانوا إذا أرادوا الحج، انطلقوا إليه، وأهلوا عنده، ورفعوا أصواتهم»^(٥٢)، وكذلك: «إذا أرادت حجّ البيت وقفت كلّ قبيلة عند صنمها، وصلّوا عنده»^(٥٣).

وكان لعبّاد كل صنم من القبائل المختلفة تلبيات خاصة، ومن بين هذه الأصنام كان لكل من اللات والعزى ومناة وهبل وذو خلصة وذو كفين وجهار وذريح وذولبنا وسعيدة وشمس ومحرّق ومزحج ونسر ويعوق وودّ وبعوث تلبية خاصة به، وهي مذكورة في المصادر التاريخية، وقد أحجمنا عن إيرادها مراعاة للاختصار.

وعدا هذه الأصنام، كان لقبائل كنانة وثقيف وهذيل وبييلة وجذام وعكّ وأشعر وربيعة وقيس وعيلان وبني أسد وقيم ومذحج وهمدان وبكر بن وائل وبني معدّ وبني نمر أصنامهم، ولها تلبيات خاصة أيضاً.

وكانوا يصفقون ويصفرون لدى التلبية. يمكن القول: إنّ الحج الجاهلي كان مزيجاً من الشرك

الحج الإبراهيمي والحج الجاهلي

- عزة دروزة: ١١٥-١١٦.
- ٤ - Booth, the historical library of diodorus the sicilian - P.105
- ٥ - تاريخ العرب في الاسلام: ٤٥-٤٧.
- ٦ - نفس المصدر: ٤٧-٤٨.
- ٧ - تاريخ الجاهلية، الدكتور عمر فرّوخ: ١٠٩.
- ٨ - الشورى: ٧.
- ٩ - محمّد: ١٣.
- ١٠ - الزخرف: ٣١.
- ١١ - Encyclopaedia of religion and ethics, by Hasting - Vol. 8, p. 511
- ١٢ - مروج الذهب ٢: ١٦٤.
- ١٣ - تاريخ العرب في الاسلام: ٤٨-٤٩.
- ١٤ - البقرة: ١٤٤.
- ١٥ - كتاب الاصنام، ابو منذر هشام بن محمّد الكلبي: ٦.
- ١٦ - نفس المصدر.
- ١٧ - نفس المصدر.
- ١٨ - الوثنية في الادب الجاهلي: ٢٨٢-٢٨٤ واسواق العرب في الجاهلية والاسلام، سعيد الافغاني: ٢٤٩-٢٥٠.
- ١٩ - البيان والتبيين، الجاحظ ٣: ٩٥.
- ٢٠ - ديوان امية بن أبي الصلت: الدكتور عبد الحفيظ السلطي: ٥١٨.
- ٢١ - في طريق الميثولوجيا عند العرب، محمّد سليم الحوت: ١٥٠.
- ٢٢ - معجم البلدان ٤: ١١٧.
- ٢٣ - Encyclopaedia of Islam vol, 3. p. 32
- ٢٤ - الوثنية في الادب العربي: ٢٨٧.
- ٢٥ - نفس المصدر: ٢٨٩.
- ٢٦ - السيرة النبوية لابن هشام ١: ١١٩.
- ٢٧ - صحيح البخاري ٢: ٢٠١.
- ٢٨ - اخبار مكة ٢: ١٥٤.
- ٢٩ - الوثنية في الادب الجاهلي: ٢٩٣.
- ٣٠ - السيرة النبوية لابن هشام ١: ١٢٠.
- ٣١ - المفضليات، الضّبي: ١١١.
- ٣٢ - معجم الشعراء، المرزباني: ٢٩٤.
- ٣٣ - تاج العروس ٣: ٤٨٦.
- ٣٤ - كتاب الاصنام: ١٤.
- يستجيبون لهذا الأمر، إذ كانوا فقراء معدمين من جهة، و كانوا يرفضون الخضوع لامتيازات قريش و قراراتها الاستعلائية من جهة ثانية، ولما كان الغرض من الحج ترسيخ التقاليد القبّلية والجاهلية، فقد كانوا مستعدين لأن تطوف حتى نسأوهم عاريات.
- و حسباً نقل ابن كثير فان الآية نزلت للحيلولة دون هذا العمل (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد...) (٥٧).
- و وضعوا إساف و نائلة قرب الكعبة، الأولى بجوارها، والأخرى عند زمزم، و على الحاج أن يبدأ طوافه أولاً من إساف و بعد أن يستلم الحجر الأسود و يختم طوافه، يستلم الحجر الأسود مرة ثانية، و بعد ذلك ينتهي طوافه باستلام نائلة.
- و حسب تقاليد المشركين لم يكن طواف الحج و العمرة تعبدياً دائماً، إنما كان أحياناً للتعبير عن الغضب و الشر و إثمهاد البيت على ظلم الأعداء.
- «نقل أن أبا جندب بن مرة القرظدي كان له جبار من خزاعة اسمه خاطم، فقتله زهير اللحياني و قتلوا امرأته، فلما برأ ابو جندب من مرضه خرج من أهله حتى قدم مكة، فاستلم الركن و كشف عن إسته و طاف، فعرف الناس أنه يريد شراً» (٥٨).
- كان السعي بين الصفا و المروة جزءاً من الطواف عند الحُمس وربما عند غيرهم، ولكن لم يؤده جميع المشركين و كان السعي بين الصفا و المروة من شعائر الخليل (عليه السلام) إلا أنه ترك و مسح، و بعد ظهور الاسلام و فتح مكة أمر رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) بادائه إذ قال تعالى: (إِنَّ الصَّفَاَ وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...) (٥٩).

الهوامش

١ - الوثنية في الأدب الجاهلي، الدكتور عبد الغني زيتوني: ٢٧٣.

٢ - الحج: ٢٦-٢٧.

٣ - تاريخ العرب قبل العروبة الصّريجة في جزيرة العرب، محمّد

الحجج الإبراهيمي والحجج الجاهلي

- ٣٥- السيرة النبوية لابن هشام ١: ١٩٩.
- ٣٦- المحرر، ابن حبيب: ١٧٨.
- ٣٧- القاموس المحيط، مادة حمس.
- ٣٨- البقرة: ١٩٩.
- ٣٩- المحرر: ١٨٥ والسيرة النبوية لابن هشام ١: ٣٠٢.
- ٤٠- البقرة: ١٨٩.
- ٤١- الوثنية في الأدب الجاهلي: ٣٠٤-٣٠٥.
- ٤٢- السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٠٢.
- ٤٣- المحرر: ١٨٥.
- ٤٤- الوثنية في الأدب الجاهلي: ٣٠٨.
- ٤٥- المحرر: ١٨١.
- ٤٦- صحيح البخاري ٢: ١٧٥-١٧٥.
- ٤٧- الوثنية في الادب الجاهلي: ٣١٣، نقلًا عن اخبار مكة.
- ٤٨- نفس المصدر: ٣١٥.
- ٤٩- نفس المصدر: ٣١٩ و the life of muhammad, A. H. Siddiqui p. 31
- ٥٠- كتاب الاصنام: ٧.
- ٥١- يوسف: ١٠٦.
- ٥٢- اخبار مكة، الأزرق ١: ٧٥.
- ٥٣- تاريخ يعقوبي ١: ٢٩٦.
- ٥٤- الانفال: ٣٥.
- ٥٥- السيرة النبوية لابن هشام ١: ٢٠٢.
- ٥٦- الوثنية في الادب العربي: ٢٣٩-٢٤٠.
- ٥٧- الاعراف: ٣٠.
- ٥٨- خزانة الأدب، البغدادي ١: ٢٩٢.
- ٥٩- البقرة: ١٥٨.
- المصادر
- أخبار مكة، الأزرق (مكة المكرمة، الماجدية، ١٣٥٢).
- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، سعيد الأفغاني (دمشق، ١٩٢٧).
- البيان والتبيين، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون (بيروت، دار الفكر، ١٤١٠).
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن مرتضى الزبيدي (بيروت، دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ).
- تاريخ الجاهلية، الدكتور عمر قروخ (بيروت، دار العلم
- للملايين، ١٩٨٤).
- تاريخ العرب في الإسلام، الدكتور جواد علي (بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٤).
- تاريخ العرب قبل العروبة الصريحة في جزيرة العرب، محمد عزة دروزة (صيدا، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٣٧٦).
- تاريخ يعقوبي، ابن واضح يعقوبي (بيروت، دار العراق، ١٩٥٥).
- خزانة الأدب وئب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق و شرح، عبد السلام محمد هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٩).
- ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع و تحقيق و دراسة، الدكتور عبد الحفيظ السطلي (دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٧٧).
- السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق، مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلي (القاهرة، البابي الحلبي، ١٩٥٥).
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل (القاهرة، مطابع دار الشعب، ١٣٧٨).
- في طريق الميثولوجيا عند العرب، محمود سليم الحوت (بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٨٣).
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦).
- كتاب الأصنام، أبو منذر هشام بن محمد الكلبي، تحقيق، أحمد زكي باشا (القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٤).
- المحرر، أبو جعفر محمد بن حبيب، تصحيح، الدكتورة إيلزه ليختن شتير (بيروت، دار الآفاق الجديدة، بدون تاريخ).
- مروج الذهب و معادن الجواهر، المسعودي، تحقيق و تصحيح، شارل بلا (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٥).
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي (بيروت دار الكتب العلمية، ١٤١٠).

الحجّ الإبراهيمي والحجّ الجاهلي

Encyclopaedia of Islam (Leiden, E. j. Brill, 1986)

Encyclopaedia of religion and ethics, by James Hasting (Edinburgh, T. & T. Clark, 1980)

The life of Muhammad, AbdulHameed SiddiQui (Islamic publication Limited Pakistan, 1981).

معجم الشعراء، المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج (دمشق، مكتبة النوري، بدون تاريخ).

المفضّليات، المفضّل الضبيّ، تحقيق وشرح، أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦).

الوثنية في الأدب العربي، الدكتور عبد الغني زيتوني (دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٧).